

ثقافة العنف أم عنف الثقافة : بحث عن مواطن الإرهاب الحقيقي

بقلم : د. محمود سليمان
باحث و جامعي

ثقافة العنف في سوسولوجيا السياسة الإسرائيلية
المؤلف : الدكتور عبد الغني عماد
الدار : دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠١ ، (٢٠٨ ص)

إذا كان الإرهاب كما يرى المؤلف ، ليس أمراً عرضياً أو ظرفياً في تاريخ إسرائيل ، بل هو مركب عضوي و أساسي في الصيغة الصهيونية المعاصرة ، فتلك نتيجة انتهى إليها هذا الكتاب مندرجاً في ذلك من رصد الأساليب الفكرية و العقائدية و النفسية التي تربي عليها اليهود عبر العصور و الأزمان ، و ما أفرزته من ممارسات سلوكية مع الآخر بحيث يتضح بشكل جلي ، هذا الترابط عند الصهاينة ، ما بين الفكر و السياسة ، و العقيدة و السلوك ، كما بين الخرافة و الأسطورة من جهة و بين الواقع و الحقيقة من جهة أخرى . ففي ثمانية فصول ضمها الكتاب كانت لمسات علم إجتماع المعرفة و تقنياته واضحة في إجراء حفريات معرفية لكشف الطبقات التي تتشكل منها الذهنية الإسرائيلية المعاصرة باصولها الصهيونية و مرجعيتها التوراتية و التلمودية ، وكان من الطبيعي أن يوفق المؤلف في هذا الجانب الذي هو من صميم إختصاصه الأكاديمي .

ذهب المؤلف عميقاً نحو الميتولوجيا المؤسسة للعنف و التي تدعى الصهيونية أنها تستلهم ما تقعله منها ، على قاعدة " الشعب المختار " و " أرض الميعاد " و التي تحولت مرجعية عقيدية تزعم الإصطفاء و الإستثناء و تدعي الفداسة و تمارس الإستعلاء و العداة ، تجاه الآخر " الغوييم " و هم عموماً غير اليهود ، و الذين هم إلى الحيوانات أقرب حسب التعريف التوراتي و التلمودي .

و أخطر ما في هذه الأفكار العنصرية ، هو تغليفها بمزاعم دينية و إصاقها بالرب و على لسانه ، و إستدعائها من التاريخ القبلي السحيق و إسقاطها على الواقع الراهن لتقوم بوظيفة سياسية على حساب شعب آخر . نشأت الصهيونية مستندة الى فيض من الأساطير ، ملأت برموزها حياة اليهود و رسمت بنموذجها سلوكهم ، و اضافت الى رصيدهم عداة من تبقى من الشعوب ، خاصة بعد إنحياز الإستعمار و تبنيه قيام دولة يهودية تحت الشعار الزائف : شعب بلا أرض لأرض بلا شعب ، و هي التي قامت بالعنف و الإرهاب و إقتلاع الآخرين و إبادتهم .

إن قراءة متأنية في فصول الكتاب الأولى تظهر بوضوح الترابط المحكم بين المرجعية التوراتية و التلمودية و النماذج السلوكية للسياسة الصهيونية و التي ما نجت إلا في إنتاج العنف و الإضطهاد و الإرهاب لكل ما هو غير يهودي ، حتى اصبح الأمر ثقافة اكثر منه ايدولوجيا ، و نمط سلوكي كامن في صميم الشخصية و بنيتها الأساسية أكثر منه رد فعل او خيار او إجراء مؤقت او ظرفي . و هذا ما يفسر ان الصهيونية لا تعيش إلا في مناخ العدوان و الحقد و الكراهية للأخر بما لايفسح المجال لأي مستوى من التعاطف و الرحمة ، ففي هذا النوع من المشاعر نفي للذات و اعدام لمبرر وجود الصهيونية القائم على مثلث العنف و الإستيطان و العنصرية .

من هنا نفهم مغزى الإشكالية التي اثارها المؤلف في كتابه بدءاً من العنوان " ثقافة العنف " . فالصهيونية إمتلكت شروعا لإعادة تشكيل التفكير والمعرفة والسلوك والتفضيلات والمواقف والنظرة الى الذات والآخر والكون والمرجعية الجماعية وصولاً الى آليات إعادة إنتاج الشخصية اليهودية داخل كيان خاص هو إسرائيل . والصهيونية في هذا أفضت الى كيان سياسي لم يتحول بعد الى مجتمع ، لذلك يصح القول ان إسرائيل كيان يقف على رأسه سعيداً بما لديه ، غير آخذ بعين الاعتبار الواقع المتعين وما فيه من تضاريس وحقائق ووقائع .

ولعل الجديد والمفيد في الكتاب هو التحليل السوسيولوجي للأسس والجزور التي انتجت العنف الصهيوني ، ولا تزال تعيد إنتاجه بفعالية ، حيث الكل أوفياء لتراثهم الإرهابي . وهم في الحقيقة لا يملكون ولا يستطيعون إلا الإلتزام بهذا النمط السلوكي فهم ثمرته وحاصل إنتاجه بمن فيهم الليكود والعمل ، اليمين واليسار ، الحماثم والصقور الى غير ذلك من التسميات والأوصاف الملتبسة .

يقدم الدكتور عماد في احد محاور الكتاب الهامة قراءة سيكولوجية للعنف الإسرائيلي انطلاقاً من تساؤلات طرحت منذ الإنتفاضة تتعلق بحالة عدم الإكتراث في الرأي العام الصهيوني بكل ردود الفعل التي تثيرها اعمال القتل والعقوبات الجماعية لألة القمع الإسرائيلية وهي تساؤلات تذهب الى تحليل الآليات الدفاعية التي تلجأ اليها الشخصية الإسرائيلية لتحمي نفسها من ردود الفعل التي يثيرها ألم الضحايا وصراخهم ، ولتخلص نفسها من وطأة الشعور بالذنب والندم . في هذا المحور الهام يطرح الكتاب مقاربة سيكولوجية وسوسيولوجية من خلال التركيز على تحليل ثلاثة جوانب في الشخصية الإسرائيلية هي على التوالي معرفية وانفعالية وسلوكية . ويشير الى أن التنشئة السياسية والإيديولوجية لها آلياتها وحيثياتها التي تقوم على التعبئة والإستهناض كما انها تتركز على اهمية شعور الفرد وكذلك المجموعة بالإضطهاد (البارانويا) . وبهذا يتشكل نمط سلوكي لدى الإسرائيلي يقوم بإزاحة القلق وحل الأزمة عن طريق التغاضي عن المشاعر " الغيرية " من خلال انكاره للألم الذي يلحقه بالضحايا وإلقاء المسؤولية على الضحية نفسها . لذلك لا مجال للتعاطف و الرحمة عند اليهودي الإسرائيلي ليس لأنه فقد انسانيته بل لأن المجتمع الذي يعيش فيه تقرر سلوكياته بما يخدم " الية التجميع " التي كلما وهنت عملت الحكومات والأحزاب والمؤسسات الموازية على إستتهناضها ، ومن يخرج عن آلية الإستيطان هذه ينعت بالخيانة او " اليهودي كاره نفسه " و من يندمج ويتماهى مع هذه الآلية يصبح بطلاً او مواطناً صالحاً .

وليس ادل على ذلك النهاية البائسة لمن خرج عن الخط الصهيوني العام ، ولعل مسألة السوسيولوجيين الجدد التي يتوقف عندها المؤلف بالتحليل والنقد خير دليل على ذلك رغم ما أثارته من نقاشات هامة في الداخل الإسرائيلي .

يبقى الإشارة الى أن ما يحذر منه المؤلف هو إعادة إنعاش سياسات الترانسفير والتهجير والتي يستعرضها بعمق ، متتبعاً مراحلها منذ قيام الكيان الإسرائيلي . وهو يقرأ في هذه السياسات ما يوحي بإعادة طرحها وتبنيها مع عودة شارون وما يمثله من إتجاه عنصري لا يقيم وزناً للقوقة والعنف .

إن كتاب ثقافة العنف في سوسيولوجيا السياسة الإسرائيلية يشكل إضافة هامة الى خزانة الفكر العربي . انه يشير الى مواطن الإرهاب الحقيقي في هذا العالم ، وقد جاء في وقته ليساهم في النقاش حول هذه المسائل ، وقد نجح في توظيف السوسيولوجيا والبحث الأكاديمي في قضية

الأمة معركتها الأساسية ، ومستفيداً من مراجع حديثة ومتنوعة شملت بعض ما كتبه أكاديميون يهود من مختلف الإتجاهات وذلك من خلال قرائتها نقدياً وهو ما كان يتهيب منه بعض الباحثين العرب .

وإذا كان التكتيف هو السمة الغالبة على الكتاب ، فإن ذلك خفف من مساوى الإستفاضة والتكرار التي يقع فيها البعض ، لقد طرح الكتاب الوقائع والأحداث والنصوص يشيء من التكتيف ، لكنه أعطى للتليل والمقارنة والنقد ، المساحة الكافية لإستخلاص النتائج ، بما يثير التساؤلات التي تستنفر العقل والذهن والإدراك في وقت أحوج ما نكون فيه الى درء الأخطار عن الإنتفاضة الفلسطينية بكل مالها وما فيها من أفاق وآمال وأحلام .